الكِتَابةُ عن التَّعليمِ المُشَاغِب
تَعليمٌ بالسُّمِّ وتَعَلُّمٌ عَبْرَ الدَّم

مالك الريماوي

وتستمر الكتابة ما دامت التجربة لا تتكرر ولا تنتهي، وهذه فضيلة الصيرورة التي تغلب ديمومتها، فكل ذات إنسانية أو ظاهرة اجتماعية أو حالة مهنية هي حالة من التشكل المستمر، حالة تصارع بين ثنائية الدائم والمتحرك، ولهذا لم يتوقف المعلمون والمعلمات الفلسطينيون عن كتابة قصصهم، التي تتضمن المدرسة والحياة والمجتمع معاً، وتلتقط علاقات متشابكة بين أنا الكاتب وأنا الكتابة، أنا المعلم/ ة التي كانت طالبة من قبل، وأنا المعلمة التي حملت إرث الماضي، واليوم عليها أن تقرر: هل تنصاع له وتكون مجرد امتداد فيه أم تختار أن تواجه؟

الكتابة هنا (فيما يكتبه المعلمون ليست حرفة الكاتب، بل معايشة الصانع وسيكولوجيا الشاهد، والفهم الاجتماعي للفاعل، فالمعلم يعيد بناء مفردات وجوده وقصته، مفردات تبدأ من وصف الواقع، واقع المدرسة، وصف الأبنية (التي تآكلت بفعل عامل الزمن من جهة، وشغب الطلاب ومذكراتهم المكتوبة عليها من جهة أخرى) وصف للصفوف والإمكانات التي لم تطل يوماً لتستر عورة الطموح، طموح المعلمين والمعلمات في صفوف واسعة ومشرقة، وغرف متعددة الاستعمالات، قاعات للعروض وأخرى للورش العملية والفنية، طموحات مادية لا تتحقق كاملة، يعوضها المعلمون والمعلمات بكميات من طاقة الإرادة، وإرادة يحملها الدم، ويمكن نقلها عبر الوريد كما تذكر المعلمة منار زيد.

معلمون ومعلمات، شباب وشابات، يعودون للمدارس ليعلّموا طلاباً وطالبات فارق العمر بينهم مجرد بضع سنوات يحركهم الحب «نتقاسم الحب واللعب والاهتمام المشترك» هذا ما تؤكده شيماء ناصر؛ معلمة تتذكر أنه كان يقال لها: «أنت رأس الحية»، ليست الأفعى بل رأسها، أي مقدمة الحركة ومطلعها، ومحط السم، وموضع الافتراس. المعلمة شيماء تحمل حركتها وسمها وتعود لتعليم طالباتها عدة جديدة من أدوات التعليم، التعليم عبر الشغب، هذا الشغب القديم الذي تحمله منار زيد شغب اضطرت لإخفائه تحت تهديدات عصا (الأم المعلمة)، المعلمة منار اليوم تعود لتقدمه على شكل تعلم يحقن في الوريد.

«أعلم طالباتي بالشغب القديم»، هذا ما تقوله المعلمة بوصفه مرتكز قصتها. لقد بدأت سرد قصتها من عمق معاناتها الطفولية، من عمق القهر المدرسي القديم، من عمق قرار المصير «كيف أصبحت معلمة؟»، كنت أتوق أن أكون طبيبة، المعلمة اليوم تكتب قصة المعلمة التي تداوي المرض بالتعليم، تعلّم الطالبات، طعم الحرية، تعليم لم يجد له علم التربية مسمى بعد، «تعليم عبر الوريد»، «طريقي مقدسة وحماسي أكبر من أن تحتمله جدران مدرسة، أو توقفه عقبات تقليدية إدارية تبرز بين الفينة والأخرى، شغبي المسحوق أيام دراستي (طفولتي) أخرجه، وتمردي أنقله لهن، أحضر مصلاً يومياً من الثقة والإيمان، من العبر والمعرفة، من التساؤلات والقضايا المعلقة، وأصله بوريد طالباتي»، هل يمكننا أن نطلق عليه التعليم عبر الدم أو التعليم الفلسطيني، نعم، إنه تعليم يمارسه معلمون ومعلمات، قهروا في طفولتهم، وفي سنين عمرهم المدرسية، وسحقوا في أحلامهم الشخصية والمهنية، ولكنهم اليوم ينتصفون لطلابهم، انتصاف هو انتصاف متأخر لأنفسهم.

بالهم نفسه وبالإرادة ذاتها يعود معتز إلى المدرسة ليس طالباً بل معلم يحمل «القليل من الخوف، والكثير من الأسئلة»، أسئلة يحملها أيضاً محمد جبران، محمد كان طالباً متفوقاً، ولكنه لم يكن يقدر أن يحمي أخاه من عقاب المدرسة، المعلم سامر عقل يعود إلى المدرسة بتوجه جديد كيف يجعل من صفه مملكة خاصة به، جيل جديد يحمل نظرية جديدة في التعليم، نظرية تعتمد الحب شكلاً لعلاقة جديدة

بين المعلم وطلابه، شكلاً يحوي داخله تعليماً عنيفاً فيه «سم الأفعى» و«الشغب القديم» المحقون في الوريد، و«الخوف على الأخ الذي يعاقب»، والأسئلة الحارقة، وطموحات المعلم الذي يبغي أن يتوج ملكاً.

المعلمون يكتبون قصصاً ملؤها الحب والجرأة والبحث المحموم، بحث عن طرائق في التعليم وقواعد في التعامل لا تحمل لغة الماضي، ولا تقبل بحدود النظام، ولذلك يقترح المعلم محمد جبران قراءة القصص مع الطلاب بدل العقاب، بدل معاقبة الطلاب، بدل العصا كوسيلة ضبط، لنجرب متعة القصص، إنه العقاب بالقصص، أو النظام عبر المتعة، لنجعل عنوان النظام الجديد «طلاب يحبون المدرسة»، بدل «طلاب ينضبطون في المدرسة خوفاً من العصي التي فيها».

المعلم عبد الله قبها يعيد النظر في قيمة أن يكون معلماً، يرى المنهاج أكثر مما يرى الطلاب. والمعلم مأمون إرياحي يواجه صفه بلا أي عدة تربوية، كيف أعلم ما أعرف؟ وهل دوري هو أن أسأل من يرفع أصبعه؟ وتأتي المرشدة وتكتب تقريرها بمستوى سلبي؛ مستوى عنوانه حبذا لو. . . ، الكل يطلب من المعلم، مطالب للمنهاج، وأخرى للنظام، وثالثة للمدير ورابعة للمرشد، . . . الكل يطلب، والطلاب وحدهم المنسيون، ومع ذلك يتعلمون مع معلمهم مأمون الذي يوظف تجربته ليس في تعلم فنون التعليم فحسب، بل يتعلم أن للمعلمين قيمة خاصة.

المعلم معتز يحاول مع طلابه، يتفهم أن «يكره فقط لأنه معلم الرياضيات»، ويجعل من ذلك عنواناً للبحث كيف أقلب المعادلة؟ وبدل أن يكرهوني لأني معلم الرياضيات، أجعلهم يحبون الرياضيات لأنهم يحبون من يعلمها، ويبني مثلث عمل جديد: معلم يتفهم، وطلاب يثقون بقدراتهم، ومادة مصاغة بشكل له معنى، محاولة جديدة في إعادة قلب المعادلة لتصبح أحب الرياضيات لأنك معلمه، بدل أكرهك لأنك معلم الرياضيات، قصص يكتبها معلمون لا يرغبون في ترتيب طلابهم تحصيلياً أو أبجدياً، لأنهم اكتشفوا أن طلابهم شركاء يستحقون الحب والاحترام قبل المعرفة، فحولوا صفوفهم إلى ممالك خاصة في صناعة المعنى، معنى يحول المعلمين والمعلمات من معلمة تحكي وتحكي وتحكي، إلى معلمة تسمع وتستمتع، «إنني أسمع، أسمع طالباتي، أسمع، واستمتع . . وأستمتع . . وأستمتع».

ونحن نسمع قصص المعلمين ونعايشها لنطيل عمرها، فأعمار القصص ثلاثة: تعاش وتتطلب أن تروى، تروى وتود أن تسمع، تسمع وتفترض أن تفهم، وفهم القصص يكمن في محاورتها، وهذا ما نحاول أن نفعل: نفتح مجالاً للمعلمين ليسردوا قصصهم، قصص تنجدل مع تشكيل الهوية وصيانتها، قصص يسردون عبرها رحلتهم من لحظة الرعب الأول الذي يصفه المعلم سعيد عرباس: «هل فعلاً سأصبح معلماً، يا رب ما الذي ينتظرني؟، إلى اللحظة التي يتحققون فيها كمعلمين يؤكدون: أنا على الطريق الصحيح للنجاح».

قصص تشكل تمظهراً لما يحدث في عمق المدرسة، تمظهرات تعمق فهمنا لما يحدث، وتمكن من مراجعته والعمل على تغييره، وأخيراً فالمدرسة جزء من الواقع، وكما الواقع فيه قصصه، كذلك المدرسة والقصص في كل مكان، وكل مكان له قصصه الخاصة، والمعلمون يفتحون قصص مملكتهم.

مركز القطان

من فعاليات الدورة الخامسة لمدرسة الدراما الصيفية في جرش.